

بضاعة القلم

للأستاذ توفيق حسن الشرتوني

لا جدال أن بضاعة القلم هي البضاعة التي تصدر خاماً من منجم الدماغ الإنساني ، وتتحول إلى مصنع الحافظة للقيام بمهمة فرزها وضروب حياتها . وما مصنع الحافظة سوى مستودع يجمع بمفردات اللغة وشواردها ، ومسبك يصب ألفاظها وتمايرها . والملمهون وحدهم يحسنون خلق هذه البضاعة وإبداع نسجها ، لأنها بضاعة فريدة صعبة المراس ، تقدر بالجودة لا بالكمية .

فكم فص من الماس لا يساويه ألف فص ، وكم قلادة من قلائد البراع لا يعدها ألف قلادة . فالثرثرة إذاً ليست أدباً ، وحوشى اللفظ ليس بياناً ، وانتحال أفكار الغير لا بعدة نتاجاً ، واجترار أقوالهم لا يعتبر فناً . إنما الأدب والبيان والفن نتاج يرتكز على دعائم الابتكار في المعنى ، والبلاغة في اللفظ ، والجزالة في الأسلوب ، والإيجاز في التعبير .

أما الابتكار في المعنى وهو بيت القصيد ، فلا يبدعه غير الموهوبين . والموهوبون أنفسهم لا ينتجون طريفاً إذا لم يستثمروا مناجم أدمغتهم ، وينرزوا في أعماق تلافيفها ومطاول أغوارها معاول تفكيرهم ومهامير جهادهم ليكشفوا عن مستغنى أرواحهم ، وعن كل ما تلبد في مستودع أذهانهم ، وتسير في مكنون طباعهم وخفايا غرائزهم . وأدباء العربية أحوج الأمم في هذا العصر إلى استغلال مناجم أدمغتهم . فهي ما تزال بكرأ لم يستثمر منها غير اليسير الذي لا يروى غلة ولا يبل ظأ

ومن العار أن تظل حياتنا الأدبية والعلمية مقصورة على معارف الجدود ، أو مستمدة من نتاج أدمغة الغربيين نأخذ منهم ولا نعطيهم ، ونتمتع بمستحدثاتهم العلمية وروائعهم الأدبية

والفنية ، ولا نبادلهم علماً يستحق الذكر ، أو أدباً جديراً بالتقدير ، أو فناً خليقاً بالإعجاب

إن العاجز يمثل درر الطفيلي ويميش عياناً على غيره . أما نحن فلسنا بالعاجزين . نحن أبناء أمة عريقة ، لنا من ماضيها الزاخر بغرر الفكر ، ومن تاريخها الحافل بجليل المآثر ، ما يؤهلنا لمباشرة أرق الأمم حضارة وعلماً ، وما يذكى فينا روح المساهمة الواجبة علينا لإزاء العالم ، في حلبة الإبداع والتجدد .

وليس يعوزنا غير التضلع في العلوم والفنون والصناعات ، والاطلاع على طارفها وتالدها ، والتممق في درسيها وتخصيصها لاستجلاء كنوزها . ثم التمرن على إشغال الذهن ومواصلة التفكير لبعث ملكة الاستنباط الراقدة في حنايا أدمغتنا البكر ، وهذا كله في متناول أيدينا . لجامعاتنا ومدارسنا ومكتباتنا كلها تزخر بمختلف المعارف الإنسانية ، ينهل منها الطالب ما يشاء ، ويثقف نفسه ما شاء لها من التنقيف .

ولكن هل من السهل إجهاد الذهن لاستخراج ما فيه من الدرر والآلي ؟ إنه لعمري إجهاد عنيف لا يضاهيه إجهاد الفواص لاستخراج آلي البحر ، يتطلب علماً وجهداً وخبرة في الحياة ، ويستدعي جهداً خارقاً في التفكير ، ورهفاً دقيقاً في الملاحظة ، وإنعاماً خالصاً في الروية ، تنمسون كلها على بحث اليقظة في الحواشي والوهي في البصيرة . والحواشي المستيقظة والبصيرة الواعية مصراع الدماغ ، لا ينفذ إلى دوائله دونهما ، ولا تستخرج درره الكامنة في أغواره إلا بهما .

فلا شيء في هذا الكون يجني عفواً الخطر ، بل يشق النفس وإجهاد الجسم والعقل

فالعلم الذي نستوعبه بحول ، هو نتاج كفاح الأجيال . والكتاب الذي نتصفحه بساعة هو نتيجة جهاد الأعوام .

يستمدى الكاتب النفاذ إلى لب الموضوع بسرعة توازي سرعة
المصر الذي نميش فيه

فالماني التي تستوعب بصفحة من خط الرأى أن نعب عنها
بصفحات . والفكرة التي توضح بجملة من الخطأ أن نعبا في
كثرة الجمل . فالكتاب الشائق في هذا العصر هو الكتاب
السهل المأخذ ، الغنى بروى البيان والفكر والتعبير الموجز
أما المطولات فقد تصرم عهدا وطولها الرفوف
إني أؤثر اليوم أن تنسج بضاعة القلم على هذا النحو ،
فلكل عصر بضاعة كما لكل عصر رجال .

(بيروت) نوبل حسن الشترتني

والصناعات التي تتمتع بأدواتها المدهشة ، قد صرف مبدعوها
العمر كله لإيجادها . والأدوية الناجمة التي نفزع إليها عند
الحاجة ، وننارها ساعة نشاء ، قد بذل في سبيل تحضيرها
واكتشافها دماء القلب وعصارة الروح

فارتقاء الإنسان إذا مصدره الفكر . ولولا أعمال الفكر
الشاقة ، لما كانت الحضارة ومستحدثاتها ولا العلم ونواميسه .
فكل جليل وجميل في الـكون تنخفض فكراً في الذهن قبل
أن تجسم كتاباً ، أو تحول آلة أو تتمص فناً

فن شاء الخلق والإبداع فليفكر . وألا يمل من التفكير .
فن لا يزرع لا يحصد ، ومن لا يواصل التفكير لا يخلق
ولا يبدع

إن الجسم لا تقوى عضلاته بلا مواصلة العمل والرياضة ...
هكذا الدماغ وهو خير ما في الجسم من عضل وخلايا لا تنفتح
مواهبه الخالقة ، وتشهد قواه المبدعة إلا بقوة المرن والتفكير
المستمر . ولا يغرب عن البال أن الثقة بالنفس هي أساس
الفكر ، فن وثق بنفسه ففكر بدماعه دون أن يتوكل على أدمغة
الآخرين . وما الإحجام والتحول والتواكل سوى قيود مرهقة
للفنفس . يتحتم علينا أن نتحرر منها ليتسع أفق تفكيرنا ونتاج
عقولنا

أما البلاغة في المبنى فزيتها خلوها من الحشو والتكاف ،
وبعدها عن الإبهام والتعقيد ، وحرصها على الوضوح والطلاوة
ومجيئها عن محض الشعور والسجية . هكذا الأسلوب لا يعتبر
جزلاً إلا إذا كان سهلاً ممتمكاً ، مؤدياً المعنى بلغة صحيحة ،
وعبارة رشيقة ، ولفظ متلائم

أما الإيجاز في التعبير ، فهو من أهم لزميات هذا العصر
الخاطف ، الذي جعل الناس يتفقون من قطر إلى قطر بسرعة
تفرج جوارح الطير ، ويرسلون أصواتهم وأفكارهم من قطب
إلى قطب ، كما ترسل الصواعق

لقد مضى عهد الداورات والمترادفات ، وتصرم زمن
الاستغراق في الكنايات والاستعارات ، وجاء المهد الذي

رسالة

عبد الوهاب عزام

صفحات من البيان الممتع سجل فيها الدكتور
عبد الوهاب عزام ما رآه وما أروحت إليه أسفاره في البلاد
العربية والإسلامية : (الحجاز ، والشام ، والمراق ،
وتركيا وإيران) ، وفي أوربا . مع نبذ من تاريخ هذه
البلاد ، وطرف من عواطفه العربية والإسلامية . وجعله
في أسلوب بليغ سهل ، بفيد ناشئة الأدب ، ويجدى
على المتأدين

ويقع الكتاب في ٤٠٠ صفحة تتضمن كثيراً من
الصور — ثمة ٢٥ خمسة وعشرون قرشاً صاغاً —
عدا أجرة البريد

يطلب من مجلة الرسالة